كلية اللغات والآداب والفنون

شعبة اللغة العربية وآدابها
مسلك الدراسات العربية

الفصل 5
وحدة الأدب الشفهي
مادة الأدب الشفهي

الأستاذ عبد العزيز اعمار

الحصة 2

2021 -2020

المحور الثاني

2. الأسطورة Le Mythe

1.2. *حول ماهية الأسطورة*

كل الشعوب وكل الحضارات عرفت الأسطورة، ومن الأسطورة نشأت فنون القول، ومنها تحرر فكر الإنسان ليخلق مختلف أشكال الإبداع الأدبي وصيغه.إذ لم تعرف البشرية أقدم من الأسطورة لتحكي أيامها ووقائعها، وتوثق مظاهر وتاريخ حضارتها، وتغوص في معلوم ومجهول فكرها وخيالها ووجدانها. لذا غدا مضمون الأسطورة شهادة على ماضي البشر وإدراكهم للعالم من حولهم، وكذا الثابت والمتحول في متخيلهم الجماعي، بصيغ تعبيرية رحمها الفكر والخيال والوجدان، وأداتها الرمز، ومسكنها مستويات عديدة من الملفوظ.

من هنا نجد الأسطورة تتبدى ضمن الشفهي في الحكايات، وضمن المكتوب في النصوص المقدسة وكتب التاريخ والأدب، وضمن المعيش اليومي في الشعائر والطقوس والممارسات. إنها تتجلى على مستوى الفعل في نشاط البشر، وعلى مستوى القول في أنواع من الخطاب الديني والتاريخي والأخلاقي والسياسي والإيديولوجي والأدبي.

بفضل حضورها الملح ومساحاتها الشاسعة داخل أغوار وخفايا الفكر البشري، أصبحت الأساطير تحتل موقعا استراتيجيا متميزا في حقل فلسفة العلوم وتاريخ الفكر، باعتبارها أركيولوجيا أو حفريات الذاكرة البشرية. بحيث رد الاعتبار في الدراسات والعلوم الإنسانية، إلى الخيال والرمز، بعد مرحلة هيمنت فيها النزعة العقلانية Rationalisme ومركزية الذات الأوروبية أو الغربية Egocentrisme ولم تعد الأساطير أو الفكر الأسطوري مجرد "سلوك الرجل المتوحش" Comportement de l'homme sauvage أو "تفكير العشائر البدائية Pensée des Peuples primitifs"، بل غدت الأسطورة نمطا من أنماط التفكير والتعبير، جدير بكل عناية واهتمام علمي، بل دافعا إلى علوم حديثة : مثل الألسنية، والنقد الأدبي، والسيميولوجيا، والأنثروبولوجيا، والإثنولوجيا، وعلم النفس، والتاريخ الاجتماعي، وعلم الأديان، وعلم الآثار أو الأركيولوجيا ...

اعتبرت الأساطير مصدرا خصبا لدراسة الشعوب والمجتمعات، وتحليل رؤيتها للكون والمجتمع والإنسان، ومعرفة مواقفها من القضايا الجوهرية التي شغلتها في الزمان والمكان. لذلك نجدها قد شغلت المفكرين والباحثين بالسؤال عن قيمتها ودورها في تاريخ الفكر البشري:

- باعتبارها قصصا، تساءلوا عن محكياتها، من ناسجها ومن راويها، كيف، ولمن، ومتى، ولماذا؟
- وباعتبارها صورا وخيالات، تساءلوا عن مغزاها ومدلولها ومدى علاقتها بالواقع الذي تحكي عنه وتحاكيه؟
- وباعتبارها نشاطا فكريا وروحيا للإنسان القديم، تساءلوا عن مدى تمثيلها وتوثيقها وارتباطها بالحضارات والقيم التي ولدت ونشأت فيها؟

في خضم هذا الانشغال المعرفي بسؤال الأسطورة، يلتقي جل الدارسين للأساطير -على اختلاف مدارسهم ومقارباتهم وكذا تفسيراتهم وآرائهم- حول ملاحظات محددة وواضحة مفادها أن الأساطير:

- من نتاج الخيال البشري الخلاق

- ليست مجرد وهم

- لها علاقة بالواقع أو "الحقيقة" بل هي في نظر مبدعيها من الشعوب والأقوام، عين الحقيقة.

- هي محاولة الإنسان الأول في تفسير الكون تفسيرا قوليا.

- هي دين الإنسان الأول

- هي الجزء القولي المصاحب للشعائر الدينية الممارسة بالرقص أو الحركة، في الأديان القديمة.

2.2. *حول نشأة الأسطورة*

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالأسطورة شكل من أشكال التعبير، و"نظام رمزي" يعبر عن مشاغل البشر الفردية منها والجماعية، لاتصالها بجانب الوعي منهم على اختلاف أشكاله من دين وتاريخ وفلسفة وفن أو بما لا يقع منهم تحت دائرة الوعي والإدراك من طقوس وشعائر وسحر، ولاتصالها أيضا بالفعل والنشاط ومختلف أشكال التأثير في الكون والمجتمع من صيد وزراعة واختراع وصراع. لذا نجد للأسطورة علاقة وطيدة بسائر ما ينتجه الخيال البشري، ضمن نشاطه الفكري والعملي، في سيرورة لا تكتفي بالواقعي أو العقلي المحض، بل تتوق إلى تجاوز ما هو كائن وإحلال الحلم والممكن محله.

من هذا المنظور اختلف -منذ زمن- الباحثون في تفسير نشأة الأساطير وبداياتها الأولى. في حين أن الأسطورة ظاهرة تاريخية نبعت من جدل الإنسان والعالم المحيط، أي من خلال وعيه وعلاقته وتآخيه مع الطبيعة، وكذا أنسنته لها عبر التاريخ، باعتباره الكائن المفكر الفاعل، أو كما يصفه ابن خلدون في "المقدمة" بصاحب "الفكر واليد". هذه العلاقة

الجدلية المتطورة باستمرار بين الإنسان والطبيعة هي ما يفسر سمة الصيرورة والتحول في الأساطير.

بالنسبة **لإنسان ما قبل التاريخ**، ارتبطت الأسطورة لديه بوعيه الحسي بمحيطه وبعلاقته مع غيره من أفراد الجماعة ومن أشياء وموجودات ملموسة، مندرجة ضمن تمثل الواقع والسيطرة عليه عمليا.

وبالنسبة **لإنسان العصر الحجري الجديد**، أي منذ حوالي 4000 سنة ق. م، وهي المرحلة التي تزايدت فيها سيطرة الإنسان على الطبيعة مع اكتشاف النار وتطور أدوات العمل؛ فإن الأسطورة ارتبطت لديه بالسحر والشعائر والطقوس، حيث شكلت أداة من أدوات التأثير في الواقع الطبيعي بالكلام. في حين شكل السحر والشعائر والطقوس جانب الفعل والممارسة.

أما أساطير **الشعوب والحضارات القديمة**، التي عاشت منذ نهاية العصر الحجري الجديد والتي نجد آثارها في تراث مصر القديمة وسومر و بابل وآشور و اليونان؛ فنجدها هي الأخرى تصور ضربا من العلاقة المنسجمة والمتناغمة بين الإنسان والكون والمجتمع. بحيث لم يعد الكون كثلة مبهمة مستعصية على الفهم، بل عالما حيا ينبض بالحياة، يتحدث عن الإنسان عبر تجليه في الأساطير. كما صارت الأسطورة لدى هذه الشعوب قصة مقدسة تحكى لأنها تروي واقعة وتخبر عن حقيقة من الحقائق، حدثت في أول الزمان.

وعليه، فإن الأسطورة عند الشعوب والحضارات القديمة، هي التاريخ والدين والمعرفة والأخلاق:

- هي **التاريخ** لأنها تحكي وقائع وحقائق لا مجال للشك فيها عند أصحابها.

- هي **الدين** لأنها تحكي قصة كائنات علوية هي محل تقديس واحترام لأنها أصل الموجودات.

- هي **المعرفة** لأنها تخبر بأصل الوجود ونشأته، والإنسان بفكره ونشاطه.

- هي **الأخلاق** لأنها تقدم - من خلال التاريخ والدين والمعرفة - نموذجا ومثلا أعلى لسلوك الإنسان وقيمه.

3.2. *علماء الأنثروبولوجيا ونشأة الأسطورة*

إن المحاولات الأولى في البحث عن تفسير علمي لنشأة الأسطورة قد ربطت هذه النشأة بتاريخ الأجناس البشرية (الإثنيات) وتناولت الأسطورة من منظور محلي، إلا أن هذا الطرح يترتب عليه بالضرورة اختلاف الأساطير من شعب لآخر. ولما انتبه الباحثون إلى وجود تشابه بين أساطير مختلف شعوب العالم، سواء من حيث مضامينها أو دلالاتها أو رموزها، فإنهم فسروا نشأة الأساطير بمرحلة فكرية عاشتها الشعوب برمتها، تتسم بتجسيم وتشخيص

العناصر الكونية. هذه المرحلة، كما يذهب إلى ذلك أندرو لانج كان أساسها التأمل في نظام الكون وعلاقة ظواهره بالخلق والإنسان والصراع المتلازم بين الخير والشر. واعتبر هذا الاتجاه أن نشأة الأسطورة تمثل أولى مراحل التفكير الفلسفي الذي سينشغل فيما بعد بالسؤال حول ماهية الوجود والمعرفة والقيم.

وحسب هذا الرأي، فالإنسان القديم عندما تساءل عن مصدر الظواهر الكونية التي تجلب له الخير والطمأنينة (مطر- زرع- نور...) وتلك التي تسبب له الخوف والقلق (البرق- الرعد- الجذب- الظلام...) ربط كل هذه الظواهر بقوى غيبية تسيطر عليها وتتصارع حولها. وعن هذا الصراع ينشأ التوازن بين الخير والشر، وبدون هذه الصورة الأسطورية المتكاملة ستبدو الظواهر الكونية متناقضة ومبهمة. في حين أن وجود الأسطورة يُكسب الإنسان طمأنينة وحماية من دوافع الخوف والقلق.

إلا أن هناك من الباحثين من يرى عكس كل ذلك، حين ينكر على الإنسان القديم انشغاله بالكون ونظامه إلى حد التأمل والتساؤل. من هؤلاء الباحث اللغوي، الألماني ماكس ميلر Max Miller (1823-1900) رائد مدرسة الميثولوجيا الطبيعية Nature Mythologique الذي كان يقصر جميع الأساطير على تجسيد الشمس، باعتبار انتمائه إلى الفرع الشمسي من هذه المدرسة، حيث كانت هناك فروع أخرى تقصر جميع الأساطير على تجسيد القمر أو الغيوم أو العواصف أو الرعد أو البرق...

يذهب ميلر Miller إلى أن الأسطورة عبارة عن مرض وعيب لغوي، فالإنسان البدائي - في نظره- كان يتحدث من خلال الأسطورة لا من خلال اللغة، وذلك راجع لعجزه عن استخدام اللغة في التعبير عن دوافعه الداخلية، ولهذا قد بدت له - مثلا- أشعة الشمس أصابع آلهة... وهذا يعني بالنسبة لميلر أن الأسطورة تمثل مرحلة متخلفة للفكر الإنساني، وأن الأسطورة فقدت قيمتها ووظيفتها عندما أصبح باستطاعة الإنسان أن يستخدم اللغة المباشرة في التعبير عن مشاعره إزاء الكون.

أما رائد المدرسة التطويرية الإنجليزية جيمس فريزر فيذهب إلى أن الأسطورة نشأت علما بدائيا يهدف إلى تفسير الحياة والطبيعة والإنسان. وأنها متأخرة عن الطقوس. يرى أنصار هذا الاتجاه أن البشرية مرت بمراحل ثلاثة في رحلة التطور الحضاري: مرحلة السحر ومرحلة الدين ومرحلة العلم. والأسطورة عندهم مرتبطة طبعا بمرحلة السحر، فالسحر - حسب فريزر- أداء تمثيلي لطقوس معينة مارسها الإنسان القديم لدرء الشر وجلب الخير له ولجماعته، وكانت هذه الطقوس مصاحبة بعبارات موضحة ومفسرة ومكملة. وفي مرحلة تالية حكى الإنسان هذه الأفعال والممارسات فكانت الأسطورة وانقرضت الطقوس والممارسات. ويمثل فريزر لذلك بأساطير الخصب والجذب كأسطورة إيزيس و

أوزيريس المصرية، معتبرا أن هذه الأساطير هي بعينها الممارسات الطقوسية التي كانت تؤدى في مواسيم الخصب والجذب توسلا للآلهة.

وينحو مالينوفسكي (1984-1942) رائد الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو المدرسة الوظيفية الإنجليزية، منحى آخر حين يربط نشأة الأسطورة عند الشعوب القديمة بمحاولة إرساء دعائم المعتقدات والممارسات المشكلة لأسس التنظيم الاجتماعي. وفي هذا السياق يؤكد "في المجتمعات البدائية تضطلع الأسطورة بوظيفة ضرورية، فهي تعبر عن المعتقدات وتسمو بها وتقننها وتحفظ المبادئ الأخلاقية وتفرضها، كما تضمن نجاعة الاحتفالات الطقوسية وتوفر للإنسان قواعد سلوكه العملية" (عن ميرسيا إلياد : *مظاهر من الأسطورة*، ص. 32). من هنا انصب اهتمام مالينوفسكي، في تفسيره للأساطير، على وظيفتها الاجتماعية لا غير، ولم تعد الأساطير في نظره، مرتبطة بالسحر والطقوس فقط، بل لها ارتباط وثيق بسائر الأنشطة الفكرية والاجتماعية التي تواكبها.

4.2. *علم النفس والأسطورة*

يلاحظ مما تقدم أن محاولات تفسير نشأة الأسطورة، نظرت إليها من جانب واحد: (فهم نظام الكون وظواهره أو خلل ومرض لغوي أو رواية للشعائر والأفعال الطقوسية أو جزء من بناء اجتماعي محلي) وأهملت جوانب أساسية ترتبط بالرمز ودلالته وشموليته وعلاقته بالفكر الإنساني.

وأدرك علم النفس مع سيكموند فرويد Sigmund Freud رائد مدرسة التحليل النفسي - إبان الثورة التي أحدثها في العلوم الإنسانية لاكتشافه للاشعور وأهمية الرمز- أن الأسطورة تحمل معنى خفيا مغلفا برموز متشابكة تحكمها عوامل نفسية وحضارية معقدة.

من هذا المنظور، فسر فرويد وأتباعه الأسطورة على أنها مثل الحلم، إخراج لدوافع داخلية في أشكال مجسدة.

فكما أن الحلم تعبير سيكولوجي فردي عن مشاكل الإنسان الاجتماعية والنفسية. كذلك الأسطورة - في نظرهم - تعبير سيكولوجي جماعي عن رغبات مكبوتة في اللاشعور الجماعي، تخرج إلى حيز الوجود عندما تتاح لها الفرصة، لذا فهي حلم جماعي أو مقطع من حياة الشعب النفسية الطفولية.

وقد اهتم فرويد كثيرا بالمشكلات الجنسية التي يكبتها الإنسان في لا شعوره والتي تظهر متنكرة في شكل رموز أو سلوك مرضي. واعتبر الرموز الأسطورية مظهرا آخر لهذه المشكلات الجنسية.

وما يؤخذ على فرويد في هذه التفسيرات، سلوكه مسلك المدرسة الطبيعية مع ميلر، حين اعتبر الرمز مجرد ظاهرة مرضية، والأسطورة مجرد تكرار لتصورات لا شعورية مُرَكِّزَة على الجنس، ومتمثلة في رغبتين أساسيتين رافقتا الإنسان منذ أقدم العصور هما: قتل الأب والزواج من الأم (عقدة أوديب).

أما كارل غوستاف يونج (1875-1961) فينحو منحى آخر في تفسيره النفسي للأسطورة، حين يعتبرها مرحلة ناضجة في اللاشعور الجماعي وتتكون من صور ورموز جماعية "تتجسد" من خلالها الأنماط الأصلية أو البدئية Archétypes التي يوفرها اللاشعور الجماعي وتبدو في الأساطير (لا شعورا جماعيا) وفي الحلم والإبداع (لا شعورا فرديا) لإقامة التوازن بين القوى المتصارعة داخل الإنسان من فن وفكر وعاطفة ونزاع...

لذا فالأسطورة في نظر يونج تعبير عن دوافع سيكولوجية جماعية ثابتة متكررة في حياة الإنسان، تدفع للبحث عن وجود القوة الخارقة المطلقة وعن الطبيعة الإنسانية التي تنشد الخلود، وعن أصل مقدس لهذه الطبيعة.

فالصراع الأسطوري مثلا -بين بطل ووحش هو رمز وصورة جماعية "يتجسد" من خلالها نمط أصلي أو بَدْئِي Archétype يوفره اللاشعور الجماعي، هو نمط الصراع بين الخير والشر.

ومن هنا ينطلق يونج في التأكيد على السيكولوجية الديناميكية للجماعة، التي يكون التعبير عنها مقترنا بوصول اللاشعور الجماعي إلى مرحلة النضج -وليس الطفولة كما ذهب فرويد- ليصبح اللاشعور الجماعي -في نظر يونج- مهدا للأسطورة.

وستعرف آراء يونج اهتماما متزايدا من لدن الباحثين خصوصا عندما سلط الضوء على العلاقة المتداخلة بين الأسطورة والأدب وعلم النفس.

5.2. *كلود ليفي ستروس والتحليل البنيوي للأسطورة*

حاول صاحب "الأنثروبولوجيا البنيوية" ورائد المدرسة البنيوية في تحليل الأساطير، تأسيس نظرية علمية لدراسة الأساطير تعتمد أولا **نقد** المحاولات السابقة التي نعتها بالتقليدية أو الكلاسيكية، ثم تجاوزها استنادا إلى **ملاحظات** استقاها من الألسنية البنيوية، كما انطلقت مع فيردناندي سوسير وتطورت مع تلامذته رومان جاكوبسون ويا مسليف (راس حلقة براغ) وكذا الشكلانيين الروس، خصوصا تروبتسكوي في مجال علم وظائف الأصوات La phonologie ، فاستمد من الألسنية البنيوية منهجا في تقطيع الأساطير وقراءتها وفهمها وتأويلها. وكان المنهج البنيوي يقوم على مبادئ منها:

- القول باعتباطية الدليل اللغوي، أي بعدم وجود علاقة طبيعية بين الدال والمدلول، ونفس الشيء ينبغي العمل به مع الأساطير.

- الألسني في دراسته للغة، يهتم بها من حيث هي نظام وقواعد مقابل الكلام.
- دراسة اللغة بالتركيز على الآنية لا على الزمانية، أي البحث في نظام اللغة في وقت بعينه وحالة بعينها، لا في تحولاته وتغيراته.
- المعتبر في نظام اللغة هو العلاقات بين عناصره المكونة له وهي علاقات تقابل وتوليف، سواء على مستوى الدلالة أو الأصوات، أي الاهتمام بالشكل لا الجوهر.

من هذا المنطلق المنهجي صنف استروس الأسطورة في وضعها اللغوي، ضمن الكلام Parole بمفهوم دي سوسير، كما صنفها ضمن الخطاب discours. فهي جزء من الكلام بحكم مادتها، إلا أنها كلام متميز على درجة من التعقيد.

وبهذه الصفة تجمع الأسطورة بين خصائص اللغة القابلة للاسترجاع (لأنها نظام ثابت وقواعد ينظر إليها بصرف النظر عن الزمان) وخصائص الكلام غيرالقابل للاسترجاع (لأنه حدث آني متغير محكوم بزمان التلفظ).

تأسيسا على ملاحظاته سابقة الذكر، توصل ستروس إلى **ثلاث فرضيات عمل** مفادها:

- إذا كان للأساطير معـــنى، فهـذا المعـنى لا يمكن أن يتعلق بعـناصر معزولة - تتكون منها الأسطورة- بل المعنى يتعلق بطريقة تنسيق هذه العناصر.
- الأسطورة تتعلق بنظام الكلام وتشكل جزءا لا يتجزأ منه، إلا أن الكلام –كما يظهر في الأسطورة- يحمل خصائص نوعية.
- يجب البحث عن الخصائص النوعية للكلام داخل الأسطورة، على مستوى فوق العبارة اللغوية المعتاد.

التسليم بهذه الفرضيات الثلاثة، يقودنا -حسب استروس- إلى **نتيجتين** هما:

أ- الأسطورة – مثلها مثل اللغة – تتكون من وحدات مؤلفة.
ب- هذه الوحدات المؤلفة توجد بعد الوحدات التي تتدخل عادة في بنية اللغة أي: الوحدات الصوتية والوحدات الصرفية والوحدات الدلالية.

الوحدات المؤلفة هي أعقد من الوحدات الدلالية، وهذه الأخيرة أعقد من الوحدات الصرفية، ثم هذه أعقد من الوحدات الصوتية.

لهذا السبب سيطلق ستروس على الوحدات المكونة للأسطورة (والتي هـي أكـثـر الـوحـدات تـعـقيدا) الوحدات المؤَلَّفَة الكبيرة أو الوحدات الأسطورية الميثيمات Les mythèmes.

وللتعرف على الوحدات الأسطورية أو الميثيمات، يجب البحث عنها على مستوى الجملة (أوديب يقتل أبا الهول ...).

في تحليله البنيوي للأسطورة، يعلن ستروس عن اعتماد التقنية التالية:

- يجب تناول مختلف روايات نفس الأسطورة، كل رواية على حدة، دون إهمال أو انتقاء؛
- تحليل كل أسطورة تحليلا مستقلا؛
- تسجيل تتابع أحداث الأسطورة بأقصر الجمل، على بطاقات؛
- كل جملة تحمل رقما يطابق مكانها داخل الحكاية؛
- كل بطاقة تتألف من تخصيص محمول لموضوع؛
- كل وحدة أسطورية أو كل ميثيم له طبيعة علاقة؛
- الوحدات الأسطورية أو الميثيمات ليست هي العلاقات المنعزلة، بل هي رزم العلاقات Bouquets de Relations؛
- الوحدات الأسطورية أو الميثيمات لا تكتسب وظيفة دالة إلا بشكل تركيبات هذه الرزم.

يعرض ستروس هذه التقنية **<u>للتجريب</u>** عند تحليله لأسطورة "أوديب"، فيقدم نموذجا لمختلف ترتيبات الميثيمات المكونة لهذه الأسطورة، هو كالتالي:

عمود-1-	عمود -2-	عمود -3-	عمود-4-
كاد موس يبحث عن أخته أوربا التي خطفها الإله زيوس		كادموس يقتل التنين	
	آل السبارتوي يبيدون بعضهم بعضا		لا بداكوس (أب لايوس) = الأعرج
	أوديب يقتل والد هلايوس		لايوس (والد أوديب) = الأيسر
أوديب يتزوج أمه جوكاستا			أوديب = قدم متورمة

	إيتيبوكل يقتل أخاه بولينيس	أوديب يقتل أبا الهول
أنتيكون تدفن أخاها بولينيس منتهكة التحريم		

كل عمود من هذه الأعمدة الأربع يضم عدة علاقات تنتمي إلى "رزمة " واحدة، تؤلفها سمة مشتركة علينا استنتاجها، وهكذا:

العمود 1: يعبر عن سمة مشتركة هي علاقات قرابة مبالغ في تقديرها، أي سمة الحب في أقصاها.

العمود 2: يعبر عن سمة مشتركة هي علاقات قرابة مبالغ في تحقيرها، أي سمة الكراهية في أقصاها.

العمود 3: يعبر عن سمة مشتركة هي القضاء على الوحوش ليعيش البشر.

العمود 4: يعبر عن سمة مشتركة هي صعوبة السير أو السلوك المستقيم.

ومن تقابلات أعمدة أسطورة أوديب – كما اقترحها ستروس -يصل هذا الأخير إلى اعتبار الأسطورة "أداة" تضطلع بوظيفة منطقية تجري: "انطلاقا من إدراك بعض التقابلات والسعي نحو التوسط بينها تدريجيا" (الأنثروبولوجيا البنيوية)، واعتبار كذلك أن منطق الأسطورة لا يختلف عن منطقنا "نحن المتحضرين".

وعليه، فإن ستروس سعى بمنهجه الدقيق إلى البحث عن "بنية الفكر البشري" من خلال الأساطير، معتبرا أن الحد الفاصل بين الفكر الأسطوري والفكر العلمي هو بين الثقافات وليس بين الشعوب. ومن ثم فقد نظر ستروس إلى الأسطورة على أنها نموذج واحد متكرر لمنطق الفكر البشري بصرف النظر عن تطورها أو تطور موضوعاتها.